



مع عدم التقليل من أهمية وخطورة الخطوة التي أقدمت عليها الولايات المتحدة يوم الاثنين الماضي ضد إيران، فإن هناك من يقول إنه على الرئيس الأميركي دونالد ترامب أن يدرك أنه لن يكسب استسلاماً إيرانياً ما دام الإيرانيون قد اعتادوا التعامل مع مثل هذه الأمور والاتفاق عليها على مدى 40 عاماً، وأنهم لم يتمكنوا من الصمود فقط؛ بل وتمددوا عسكرياً وسياسياً واقتصادياً في بعض الدول العربية كالعراق وسوريا ولبنان... وأيضاً اليمن.

المعروف أن الولايات المتحدة، وفي عهد جمهوري؛ كهذا العهد، هي التي فتحت أبواب العراق بعد سقوط نظام صدام حسين في عام 2003 أمام التدفق الإيراني، وأن جورج بوش (الابن) قد ترك الإيرانيين يفعلون في هذا البلد العربي، الذي أصبح تحت الوصاية الأمريكية، ما يريدونه. وهنا، فإن ما زاد الأمور سوءاً هو أن الديمقراطيين الذين خلفوا الجمهوريين في حكم واستعمار بلاد الرافدين قد تماذوا كثيراً في فتح أبواب بلد أصبحوا هم حكامه والأوصياء عليه، أمام طهران و«حراس» ثورتها، حيث إن باراك أوباما كان معجباً بالخميني وبصيغة الولي الفقيه، وإنه كان يعدّ أن إيران «التي هي دولة واحدة وقرارها واحد»، يمكن التعامل معها خلافاً للوضع العربي الذي كان قراره موزعاً على أكثر من 20 دولة.

إنه لا شك في أن العقوبات التي فرضتها واشنطن على القطاعين النفطي والمصرفي الإيرانيين ليست هيئنة على الإطلاق، لكنها في كل الأحوال لن تصل إلى أن إيران إنْ هي لم تغير سلوكها، كما هدد دونالد ترامب، فستواجهه «كارثة اقتصادية». فهذه الدولة، التي أصبحت بعد إسقاط الشاه محمد رضا بهلوي ومجيء هذا الحكم الذي هو امتداد لحكم الخميني صاحب ثورة عام 1979، قد اعتادت التكيف مع كل التحديات الصعبة؛ أولاً على حساب مطالبات الشعب الإيراني الرئيسية وأساسية، وثانياً على حساب الدول المجاورة؛ وفي مقدمتها العراق الذي يقال إنه في فترة حكم نوري المالكي ومجموعته قد حول مرغماً أكثر من 70 مليار دولار إلى الخزينة الإيرانية.

والمشكلة هنا؛ أي مشكلة ترمب والولايات المتحدة، أنه حتى الاتحاد الأوروبي بكل دوyle قد أعرب عن «حزنه» لاتخاذ واشنطن هذا القرار، لكن الواضح أن الأوروبيين لا يملكون إلا إعراهم عن هذا الحزن، لأن الشركات الأوروبية لا يمكن أن تفرط باستثماراتها في أميركا التي تقدر بمائة مليار دولار من أجل استثمارات في إيران لا تزيد، في أحسن الأحوال، على 3 مليارات، وهذا يعني أن الدول الأوروبية المعنية ستتحاول في النهاية إلى مصالحها الاقتصادية، حيث هناك قناعات بأن الرهان على دولة الولي الفقيه؛ إن على المدى القريب وإن على المدى البعيد، رهانٌ خاسر بالتأكيد.

وأغلب الظن أن ما ينطبق على الأوروبيين ينطبق على الصين التي لها مصالح اقتصادية هائلة في الولايات المتحدة ومعها، والتي بدورها ستتحاول إلى هذه المصالح، خصوصاً إذا ثبتت فعالية الدفعية الثانية من العقوبات الأمريكية على القطاعين النفطي والمصرفي الإيرانيين، مع الأخذ بعين الاعتبار أن البنوك الصينية قد بادرت، وقبل البدء بتطبيق هذه العقوبات، إلى إيقاف تعاملها مع التجار الإيرانيين ومع البنوك الإيرانية. والواضح في هذا المجال أن المحاولة الإرهابية التي بادرت إليها الاستخبارات الإيرانية في الدنمارك والتي استهدفت أحد قادة المعارضة «الأحوازية» العربية، قد عززت المواقف الأوروبية المساندة للخطوة الأمريكية، خصوصاً مواقف الدول الإسكندنافية.

إن المؤكد أن ما ينطبق على الصين ينطبق أيضاً على دول آسيوية وأوروبية وأفريقية وأميركية لاتينية كثيرة، فالدول والشعوب أيضاً مع مصالحها، والواضح أن هذه الدول وهذه الشعوب تعرف أن مصالحها ليست مع إيران التي هناك تقديرات بأنها، إذا نجحت هذه العقوبات وجرى تطبيقها بجدية وبحزم، ستصبح دولة مفلسة ويصبح الرهان عليها رهاناً فاشلاً حتى بالنسبة لمن يعدون أنهم الأقرب إليها، ومن بين هؤلاء بعض العرب وبعض الدول العربية.

ويبقى أن روسيا الاتحادية، التي يربطها تحالف تبادل مصالح مع إيران إن بالنسبة للأزمة السورية وإن بالنسبة لكثير من قضايا الشرق الأوسط الملتهبة، قد تتمسك بعلاقاتها الحالية مع طهران، وهي في حقيقة الأمر قد بادرت إلى التأكيد على هذا الموقف حتى قبل بدء تطبيق العقوبات الأمريكية الجديدة على الدولة الإيرانية التي، رغم كل «استعراضاتها» و«تجهازها» الفارغة، يبدو أنها باتت تشعر بأن معركتها مع الأميركيين وغيرهم لن تكون سهلة؛ لا بل إنها ستكون مكلفة وفي غاية الصعوبة، وإنها ستكون بالنتيجة معركة خاسرة.

إن ما يمكن أن يقال في هذا المجال هو أن الإيرانيين، الذين باتوا يغرون في هذا المأزق السياسي والاقتصادي الخانق فعلاً، قد بادروا إلى الذهاب بعيداً والقول إنهم أقدر على الصمود أمام الولايات المتحدة من دولتين أصغر كثيراً من الدولة الإيرانية، وأقل إمكاناتِ مجتمعين من إمكاناتها؛ هما كوبا وكوريا الشمالية. لكن ما لم يأخذ هؤلاء بعين الاعتبار هو أن عالم اليوم غير عالم الأمس، وأن موقع هاتين الدولتين الجغرافي يختلف عن موقع إيران التي هي في منطقة ملتهبة تتقاطع فيها وعندها مصالح دول رئيسية كثيرة، وتحكم في خطوط النفط المتجه إلى الدول الغربية وإلى الولايات المتحدة من خلال باب المندب، ومن خلال محاذاتها الجغرافية للخليج العربي.

بالطبع، فإن رموز النظام الإيراني، الكبار والصغار، يحاولون، وقد ضاقت عليهم الدائرة الأميركيـة الضاغطة، إقناع «شعبهم» بأن العالم لا يتحدد في هذه الفترة المصيرية خلف الولايات المتحدة، وأنه وبكثير من دوyle سوف ينحاز إلى مصالحه التي هي مع إيران التي بإمكانها استخدام سلاح النفط بكل فعالية وبيعه بأسعار مغربية لهذه الدول واستخدام أسلوب «المقايضة» المعروـف في هذا المجال، نظراً لأن عقوبات أميركا ستتحول دون استخدام الدولار الأميركي في مثل هذه الصفقات الجانبية.

إن هذا سيجري بالتأكيد، وإن دوـلاً كثيرة ستتـابـدـر إلى التـحاـيلـ علىـ هـذـهـ العـقوـبـاتـ لـتحـصـلـ عـلـىـ النـفـطـ الإـيرـانـيـ بـطـرـقـ مـلـتوـيـةـ وبـأـسـعـارـ مـغـرـيـةـ وـوـفـقاـ لـأـسـلـوبـ «ـالـمـقـايـضـةـ»ـ هـذـاـ المـسـتـخـدـمـ حـالـيـاـ لـمـواـجـهـةـ الدـفـعـةـ الـأـوـلـيـ مـنـ العـقـوـبـاتـ الـأـمـيرـكـيـةـ،ـ وـالـمـؤـكـدـ

أن إيران ستحقق نجاحات فعلية في هذا المجال، خصوصاً إن هي بقيت تتكم على تمددها العسكري والسياسي... والمذهبي أيضاً، إن في بعض الدول العربية، وإن في بعض الدول الإسلامية.

إن إيران قد تتمكن من الصمود ولو لفترة محددة في وجه الدفعـة الثانية من العقوبات الأميركيـة، رغم أن الأميركيـين يعتقدون بأن عقوباتـهم هذه، التي لا شك في أنها ستكون قاسـية وشـديدة، سوف تكون رـادعة وكـافية لإـجبار الإـيرانيـين على التـخلـي عن أـنشـطـتهم التـدمـيرـية والإـلـهـابـية، وـذلك معـ أنه قد ثـبـتـ أنـ هـذـهـ الوـسـائـلـ وـالـأسـالـيـبـ رـيـماـ لـنـ تـجـديـ، وـأنـهـاـ قدـ لاـ تـكـوـنـ فـعـالـةـ وـلـاـ مـؤـثـرـةـ مـعـ نـظـامـ اـسـتـبـادـيـ لـاـ تـهـمـهـ مـعـانـاةـ شـعـبـهـ وـلـاـ يـهـمـهـ إـذـاـ مـاـ أـفـنـيـ نـصـفـ هـذـاـ شـعـبـ مـنـ أـجـلـ تـحـقـيقـ أـهـدـافـهـ التـوـسـعـيـةـ التـيـ يـتـجـاـزـ مـدـاـهـاـ الشـرـقـ الـأـوـسـطـ وـيـصـلـ إـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الدـوـلـ الـأـفـرـيـقـيـةـ الـعـرـبـيـةـ وـغـيـرـ الـعـرـبـيـةـ.

يـجبـ أـلـاـ تـكـوـنـ هـنـاكـ مـرـاهـنـةـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ النـظـامـ الـظـلـامـيـ الـاسـتـبـادـيـ الـذـيـ تـتـحـكـمـ فـيـهـ عـقـدـ تـارـيـخـيـةـ كـثـيرـةـ سـيـرـضـخـ لـهـذـهـ عـقـوـبـاتـ وـسـيـسـتـسـلـمـ لـهـاـ اـسـتـجـابـةـ لـمـتـطـلـبـاتـ شـعـبـهـ وـلـاـ يـعـدـ شـعـبـهـ؛ـ وـإـنـماـ مـجـرـدـ رـعـاـيـاـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـتـحـمـلـوـاـ حـتـىـ الـأـكـثـرـ مـجـرـدـ الـكـارـاثـةـ الـاـقـتـصـادـيـةـ،ـ الـتـيـ لـوـحـ بـهـ الرـئـيـسـ الـأـمـيـرـيـ دـوـنـالـدـ تـرـمـبـ،ـ مـنـ أـجـلـ تـحـقـيقـ مـاـ يـعـدـهـ أـهـدـافـاـ مـقـدـسـةـ يـجـبـ تـحـقـيقـهـاـ وـبـأـيـ ثـمـنـ وـكـمـاـ كـانـتـ عـلـيـهـ الـأـمـورـ خـلـالـ الـمـرـحـلـةـ الصـفـوـيـةـ.

وـهـكـذـاـ؛ـ وـفـيـ النـهـاـيـةـ،ـ فـإـنـهـ لـاـ بـدـ مـنـ التـأـكـيدـ عـلـىـ أـنـ هـذـهـ عـقـوـبـاتـ فـيـ دـفـعـتـهـاـ الثـانـيـةـ قـدـ يـتـمـ اـسـتـيـعـابـهـاـ رـغـمـ قـسـوـتـهـاـ كـمـاـ تـمـ اـسـتـيـعـابـ عـقـوـبـاتـ الـدـفـعـةـ الـأـوـلـىـ،ـ مـاـ دـامـ أـنـهـ لـنـ يـكـوـنـ هـنـاكـ عـمـلـ جـادـ وـجـدـيـ لـإـخـرـاجـ الإـيرـانـيـنـ؛ـ إـنـ عـسـكـرـيـاـ وـإـنـ سـيـاسـيـاـ وـإـنـ «ـمـيلـيشـيـاتـهـاـ»ـ الـمـذـهـبـيـةـ وـالـطـائـفـيـةـ،ـ مـنـ الـعـرـاقـ وـمـنـ سـوـرـيـاـ...ـ وـأـيـضـاـ مـنـ لـبـنـانـ،ـ وـبـالـتـالـيـ مـنـ الـيـمـنـ،ـ وـمـنـ قـطـاعـ غـزـةـ الـذـيـ تـشـكـلـ حـرـكـةـ «ـحـمـاسـ»ـ فـيـ ذـرـاعـاـ مـتـقـدـمـةـ لـهـمـ فـيـ فـلـسـطـيـنـ وـفـيـ الـقـضـيـةـ الـفـلـسـطـيـنـيـةـ...ـ إـنـهـ لـاـ شـكـ فـيـ أـنـ عـقـوـبـاتـ الـوـجـةـ الـجـدـيـدـةـ مـهـمـةـ جـداـ،ـ لـكـنـ الـأـهـمـ هـوـ تـخـلـيـصـ هـذـهـ الدـوـلـ الـعـرـبـيـةـ كـلـهـاـ مـنـ النـفـوذـ الإـيرـانـيـ وـالـهـيـمـنـةـ الإـيرـانـيـةـ.ـ وـلـعـلـ مـاـ يـجـبـ التـوقـفـ عـنـهـ هـنـاـ هـوـ أـنـ قـائـدـ «ـالـحـرـسـ الثـورـيـ»ـ الإـيرـانـيـ مـحـمـدـ عـلـيـ جـعـفـرـيـ قـدـ قـالـ فـيـ تـصـرـيـحـ مـسـتـفـزـ لـهـ إـنـ 3ـ مـنـاصـبـ أـسـاسـيـةـ فـيـ هـذـاـ الـبـلـدـ الـعـرـبـيـ؛ـ هـيـ:ـ رـئـيـسـ الـجـمـهـورـيـةـ،ـ وـرـئـيـسـ الـوزـرـاءـ،ـ وـرـئـيـسـ الـبـلـمـانـ،ـ أـصـبـحـتـ ضـمـنـ مـعـسـكـرـ إـرـانـ.

المصادر:

الشرق الأوسط